سهرات الموتى

قصة بقلم ليلى عسيران

كانت ليلة بيروت في التاسعة من ذاك المساء باردة . وكان بردها حادا كالرمح ، يبرق كالفضة ، وينفذ كالزئبق الى خلايا الرأس . كانت المدينة بأسرها غارقة في الصقيع ... وما من نسمة دفء ، وما من همسة صوت ، او رائحة انسان .

وكانت سهرة بيروت في التاسعة من تلك الليلة تعج بذهب فائض ملأ المكان وزين الناس ، لكن وهجه حل على البشر بشعاع بارد .

وكان لا بد من حضور حفلة الساعة التاسعة . فدخلت مريم الصالون المكتظ بالناس وبالذهب وبالفضة وهي ترتجف . فالعالم هذا ليس دنياها . كانت وحدها في الصالون ، وقد لبستها غلالة من الجليد ، التصقت بجسدها ، وتسلل الصقيع من مسام جلدها حتى كادت تختنق من اليباس ومن الوحدة .

وتنقلت بين الناس لتتقي مدفأة تهرب فيه من البرد ومن الضجيج الفارغ . ووجدت زاوية فريدة في موقعها ، فهي في وسط ضجيج الذهب والفضة ، لكنها كذلك بعيدة عن لعبة اللاشيء التي تدور ليليا في الصالونات .

وكغيرها من الناس ، أمسكت مريم كأسا من المشروب ، الا انها اختارته أبيض . فالفودكا رائجة هذه الايام . والفودكا تذكرها بصديق شاب قضى سني دراسته وهو يتذوق الفودكا ، ويشربها نخبا للامل ! كان يظن ان المستقبل بالانتظار .

وتطلعت مريم من زاويتها عبر الناس الى الفضاء . ومن وراء الستارة البيضاء المهفهفة ، رأت السماء ملساء كالحرير ، تتلألأ كالجوهرة بنجوم صامتة ونائية . وليس في الفضاء أي اثر لسحابة غيم .

وتقلص شيء ما في صدرها ، هو واحد من عشرات الاشياء المخبأة عندها ، الجامدة لديها بلا حياة . لماذا لا تمطر السماء ؟ لماذا لا تبكي هي ؟ لماذا لا تصرخ وتزمجر وتهرع الى براميل وبراميل ملأى بالبترول ترشها كالامطار وكالحياة وكالنار على الفراغ الصارخ اليابس حولها ، وتهد أسوار سجن غير مرئي يفصلها عن نفسها ؟ لماذا ؟

كانت مريم قد خلعت قسرا البنطلون الكاكي ، واستبدلته مؤقتا باخر من المخمل الاسود . وابو الليل في ايلول ما مات .. قتلوه وصلبوه ، لكنه ما مات . فالفدائي يستشهد ولا يموت . الموت يحدث هنا في صالون يبرق بوهج صديء .

وتاهت بعيدة عنهم اولئك الناس في صانونات الساعة التاسعة، يعاودها القلق على مصير حامل شهادة الفودكا . لقد بروزها ودق فيها مسمار النعش في دكان مربع الشكل ، صغير الحجم ، وعلقها في منتصف الحائط المقابل للطريق العام . وهناك راح يبيع « البالات » مع شهادة مهندس كيميائي !

لكن الصديق بات يفهم التناقض بين لمعان الامل وبين ما هو آخذ بالتعفن في قناعاته . فالدفء هو غير البرد ، والعطاء غير اليباس . والكلام يسترسل عبر الصحف ، عبر الكتب ، هو الاخر وحيدا بلا ممارسة .

والفدائي في جبل الشيخ هو غير المكاتب وسلة المهملات والخطابات .

وفجأة وقعت الهزة التي انتزعت مريم من آفاقها. لقد طالت ايام ايلول ، وطالت مخالبه ، لولا صمود المرقط في حنايا الصدور.

وفي البداية اختلط الامر عليها بين المرقط وحفلة الساعة التاسعة . هل ارتفعت الستارة ؟ وهل بدأت المسرحية بهذه السرعة؟ اجل .. حط الرجل ، بل هو ثور هبط بجانبها على المقعد ، بجثته الضخمة وحركاته البطيئة .

وكيف تبدأ تلك المسرحيات في التاسعة بدلا من مسرح الساعة العاشرة ؟ ها هو الرجل يستأذنها بمسامرتها بتهذيب ليس الا صورة اخرى من الوقاحة . وتتطلع مريم الى شكله ، فتنتفض غضبا ، ويقشعر بدنها . بينما المفروض والمتبع هو ان تذوب دفئا . لكن مريم تحجم عن الاشتراك في لعبة اللاشيء .

انها ترتجف ، وهو يعاني من الحر المزيف ، ويتصبب العرق من جبين مجعد ، وفمه واسع كحلق الحوت يعب الويسكي كما لو انه يشرب الماء ، ويمتص السيجار بنهم جشع .

وتبدأ مقدمة المسرحية بنفس الكلمات التي يستعملها البطل في كل دور يقوم به في كل ليلة يخرج فيها الى الصالونات .

ولعل مظهر المخمل غرّه في تلك الليلة فراح يقول لها انه يستمتع بمغازلة النساء . ولولا وجود زوجته الجميلة تلك ، لما استطاع ان يقاوم الاغراء . وتطلع الى مريم منتظرا ان تسأله بلهجة فيها من التحدي كل ما يخفيه الدلع : « الهذا الحد تخاف من زوجتك ؟ » .

لكن مريم التي نزعت بنطلون الكاكي عنوة ، ما زالت حرة خارج الاسوار ، ومن هناك نظرت الى حيث كانت الزوجة ، تتالق . فوجدتها افضل واجهة يستعرض الزوج ثروته فيها : الملابس والمجوهرات و .. و ..

وهكذا انزلقت مريم الى اللعبة ، الا ان الدور الذي قامت به لم يكن واردا في برنامج الحفلة . وقالت للبطل :

ـ لا شك انك تحب ان تكون شهما مع النساء !

ولم يحس البطل انها تهزأ به ، وظل مصرا على ثرثرة الغزل الليلية . واشتد حصار الجليد حول مريم ، فهي لم تعرف الا الشهامة عن اولئك الرجال .

وأي رجال .. واي ابطال .. واي اسطورة !

والتفتت الى الزوج ، مصدر الجمال والثروات والغزل قائلة :

ـ أليست متعبة هذه السهرات اليومية ؟ الم تصبح مله ؟

وصعق الرجل ! وفتح عينيه اللفظتين بتعبير . يعتبر احدحالات الدهشة النادرة في لياليه . لقد اخرجته مريم من دوره التقليدي، فبات حائرا لا يعرف كيف يجيب وماذا يقول .

وظلت مريم هادئة كالثلج تمايز بين الجليد الذي يكسو جسدها، وبين الجليد الذي امات المعاني في عينيه .

واجابها كالمستفيث :

ـ ماذا تريدينني ان افعل كل مساء ؟ انا اعمل منذ السادسة صباحا ولا استريح حتى الخامسة مساء .

وكادت تنصحه ان يظل في البيت ويطالع ، لكنها خشيت ان يجيبها انه يقرأ الجريدة كل صباح !

وانتهى الفصل الاول من المسرحية . وانتقل المدعوون الى غرفة الطعام .

وظنت مريم ان المسرحية قد انتهت ، وان الستارة قد اسدلت بينها وبين البطل ، وكلها امل أن يشبع الاكل نهم الرجل بدلا من امرأة مبتذلة .

اما هو ، فان المسرحية لم تعد كالتالي الليلية المعتادة بالنسبة اليه . لقد اكتسبت رونقا جديدا . فوقف بقامته المديدة يكاد يسد باب غرفة الطعام ، وأخذ يتلمظ ، فلعبة الليلة اكثر اثارة .

وراحت عيناه تتبعان مريم وأي مائدة ستختار لتجلس اليها من بين الموائد المتناثرة .

وبدأ الفصل الثاني حول واحدة تتسع لخمسة اشخاص . وكانت مريم اول الجالسين اليها . ولحقت بها ياسمين . ياسمين الشقراء زوجة رجل الاعمال المرموق ، معروفة بعفويتها وصراحتها ، وكذلك بسذاجة قلما تحسد عليها . وهي انسانة قريبة الى القلب، رغم ملابسها الصارخة بالثمن الغالي .

وتوجه البطل الشغوف بالغزل نحو السيدتين ،ووضع صحنا فارغا بينهما . ونظرت اليه ياسمين باستغراب ، تساله لماذا لم يملأ صحنه اكلا .

وصب البطل نظراته المتهافتة على مريم هامسا بحشرجة :

ـ الان اصبحت تعرفين اين اريد ان يكون مكاني !

ومكان مريم في الثلوج ، وقلبها في الاغوار ، ويدها تضغط على زناد الكلاشينكوف غربا غربا نحو انعدو . ولكن .. ما اكثر الاعداء شرق النهر .

وهبط الرجل كالخنزير مرة اخرى الى جانبها ، يشمشم المغانم التي يسعى الى التهامها . وسكتت مريم وتمنت لو انها رصاصة تنطلق غرب النهر . واذا بزوج ياسمين يختار الكرسي الاخر الملاصق لكرسيها . وكان الدور الخامس ، وجه امرأة ينطق بصمت اكثر فراغا من اللاشيء بدأت تتفوه به .

وارتفعت الستارة على ياسمين وهي تصف كيف تأنق زوجها، وتأنى في انتقاء ملابسه وارتدائها بعد ظهر ذلك اليوم ، متحججا ان لديه اجتماع عمل طارىء ، قائلا لها انه سيترك السائق معها كي تلحق به الى السهرة .

ولم تقصد ياسمين ان تصبح لعبة مسليه من العاب المجتمع الضجر ، الا ان سذاجتها هي التي قادتها الى مصيدة اللعبة . وهكذا سقطت ياسمين في قلب المسرحية ، واخذت دور البطلة.

وتوضحت لياسمين ان ما اثار سلوكها لم يكن مجرد اهتمام زوجها البالغ بانانقه ، بقدر كونه اراد ان يترك السائق معها. اذن هو لا يريد ان يعرف احد عن تحركاته شيئا .

وانصاع زوج ياسمين الى دوره بتردد . وظل دوره مترددا الى ما بعد نهاية المسرح . ومشكلة احمد هي انه رجل متزن ، لكنه قلما يعي الى اين تقوده سذاجة زوجته .

وبدأ زوج ياسمين عند بدايه حديثها ممتعضا ، الا انه كلما كانت ياسمين تتمادى في وصف غيرتها عليه ، كلما احب تسهويه اللعبة . وعمرته حيرة عديدة مؤلمة ... ايتباهى بغيرة ياسمين عليه، فيؤكد للمستمعين انه في النهاية اخذ السائق معه ، ام يحسم الامر وينهي الموضوع ؟

وكانت مريم تتفرج بابتسامة . ولم يظهر البرد القارص على تعابيرها . وبالفعل لم يحس احد بقناع الرصاص الذي غطى وجهها، ولا احد غير ابي الليل يعرف ان في حقيبة يدها رصاصة حقيقية من النوع الحارق الخارق . انها تحملها معها اينما ذهبت ، كي تظل تتذكر انسانيه الرصاص ، وحامل الرشاش ذات مساء مضى في غور الاردن ، حيث كان ينطلق اقتتال اشرس من القلوب الحنونة.

كل هذا ، وبطل الصالون يثابر بسماجة ، على جر اهتمام الجالسين . وكان حديث ياسمين لم يرد صدفة ، بل هو المصيدة أمل البطل ان يجر مريم اليها ، ليؤكد لها ان غيرة المرأة احساس ينعش الرجل

لكن رجال مريم من طينة اخرى ، جبلهم البؤس بالصلابة ، ورشاشاتهم تلمع ايضا كانفضة تلتهب تدفيء كجمرة النار . وضحكت ياسمين ، وتلعثمت السيدة ذات الدور رقم خمسة لئلا تكشف عن كبت سقيم . أما الرجلان فقد تبادلا ابتسامة مشتركة ذات مداول معين . انها اللعبة ذاتها ، اليس كذلك ؟ اللعبة المتفق عليها تلقائيا من قبل السيدين الانيقين على الطاولة .

وبدأ الفصل الثالث من المسرحية عندما اعلن البطل بنشوة انه سوف يحدثهم عن ليلة زفافه .

وابت ياسمين بعفوية عجيبة الا ان تطلعه ذاتها من خلال موضوع آخر قابل للاثارة . فقالت بتحمس : ـ انهم روعة ، روعة .. شباب ايلول الاسود . انا اؤيدهم حتى في عملية تايلاند الفاشلة .على الاقل استطاعوا ان ...

وضحك زوجها هازئا .

والتفتت اليه مريم حيرى . وانكمشت اكثر فاكثر وهي ببلع ريقا يابسا ونسائل نفسها : بمن يهزأ هذا الرجل ؟ بأيلول الاسود، ام ان رئة ضحكته تريد أن تقول أن لا أحد يحكي عن ليلة زفافه امام الغرباء ؟

وفتحت سيدة الكرسي الخامس عينيها اهتماما .
وانطلق البطل يحكي :
ـ انتقلت من حفلة العرس الى أفضل غرفة في افخم فندق. وهناك اهيىء الجو ، ثم آخذت افسر حقائق الحياة لعروستي الساذجة ..
وقاطعته ياسمين :
ـ على الاقل استطاعوا ان يظهروا عن بهذيب وحسن تفهم لوضع تايلاند .
وتطلع الجالسون اليها بدهشة ! ما علاقة تايلاند بأيلول بحقائق الحياة ؟
واكملت ياسمين ، بل استطاعت أن تقفز من تايلاند الى افخر غرفة في افخم فندق ، وقالت للبطل :
ـ زوجتك ؟ انها حتى اليوم في غاية البراءة .

وانتفضت مريم . اين البراءة ، اهي في صفاء البنادق المحاصرة ، أهي في صبر الاهل في الارض المحتلة ، اهي في جروح ايلول التي ما اندملت ، اهي في وصية الشهداء أن نلتقط بنادقهم ونواصل القتال ، ام انها في العدة التي كانت قد تركت خطيبها الذي آحبته ، من آجل ثروة زوجها المغازل المترهل الضخم الجثة؟ وكان حضرته يقول :

ـ وعندها خلعت فستان العرس ، ووضعته على الكرسي ، في تلك اللحظة بالذات دق باب الغرفة ، وهرعت افتحه لاعرف اي ثقيل ظل هذا الذي ..
وقال زوج ياسمين المتردد :
ـ صحيح انها سماجة .
وصرخت ياسمين مستنكرة :
ـ ماذا ؟ ايلول الاسود سماجة ؟ الفدائيون سماجة ؟
لكن البطل اسرع يقول قبل أن تواصل ياسمين :
ـ وماذا وجدت ؟ سلة كبيرة من الورود الحمراء ، ارسلها لنا صديق .
وقال زوج ياسمين بتهذيب مفتعل :
ـ انها فعلا لفتة لطيفة .
واردف البطل :

ـ واغلقت باب الغرفة بالمفتاح ، ثم التفت كليا الى عروستي وهي ما زالت في ثيابها الداخلية واقفة كالتمثال . اقتربت منها نشوان ، وبعد صرخة من هنا وعضة من هناك ، خلعت زوجتي تنورتها الداخلية ، ولم يتبق علي الا « السوتيان » . فاذا بالباب يدق مرة ثانية .

وهرعت البس الروب لافتح الباب .
ويبدو اخيرا ان سيدة الكرسي الخامس قد انفعلت ،اذ صاحت:
ـ ماذا حدث بعد ذلك ؟ ماذا ؟ ماذا ؟
وضحكت ياسمين بعفوية محببة ، وقالت لها :
ـ ماذا حدث ؟ لا شيء . لقد تزوجا .
وبدأت مريم تستريح قليلا . قليلا جدا من عناء التنقل بين العالمين المتناقضين . الا آن ياسمين لم تكن قد نسيت دور البطلة الذي اضطلعت به منذ البداية ، واجابت البطل :

ـ ما هذه المغامرات العجيبة .. لن افسح لك مجالا لمنافستي. انا سأقص عليكم حادثة حقيقية سأحكي لكم كيف ضربني الفلسطينيون .

ودفت ضبول الدنيا فرحا في قلب مريم . لكنها ظلت برداة. فالنهر انكاكي مخيا في الاعماق ، والاعماق ستظل يابسة حتى تبتل بالنهر مرة اخرى . انم يكن النهر دوما صاحبها ، وكانت تسال ابا الليل عن لون النهر ، فيقول لها :

« لون النهر ؟ ماذا يمكن أن يكون لون نهر
الاردن الذي يعبره الفلسطيني لاجئا معذبا
دليلا ، ثم يعود بعد أشهر ويقطعه ثائرا ؟ ماذا
يمكن ان يكون لون مثل هذا النهر الا .. كاكيا ؟ »

ونظرت مريم الى زوج ياسمين كانها تتوسل اليه أن يترك زوجه تتكلم .

وكان البطل يعب سيجاره وينفث دخانه مبتسما بعظمة الزوج المظفر الذي وهنت قواه وهو يحكي مغامرته تلك ربما للمرة الاربعين . وقال :

ـ والان وصلت الى « السوتيان » ، ورحت افكه بتمهل ..
واخيرا نطق صوت المقعد رقم خمسة ، فالمراة محتقنة :
ـ قل .. ماذا حدث ؟
وسالت مريم ياسمين بقلق :
ـ ولكن لماذا ضربوك ؟ لماذا ضربوك ؟

وكاد زوجها يتكلم ، وتبدلت تعابير وجهه المتحفظ الى تعابير الاستنكار والتفرد انتظارا لما ستسرده زوجته . ثم آحس بشيء جديد . آحس أن مريم تتوسل اليه بعينين تلتهبان فلقا ، ان يدع ياسمين تتكلم . واستغرب اهتمامها المفاجيء به وبهم وبكل ما يحدث ، هي التي كانت طوال الوقت بعيدة نائية كالثلوج الشامخة في الاعالي .

وبدأ تيار خفي يفلت من براثن الصقيع واليباس في وجود مريم لكن البطل اندفاعه ظل مستمرا في دوره ، دون ان يكتشف الحلقة المفقودة التي فشلت في ان تربط بينهم . واسترسل يقول :

ـ والان بعد ان اصبحت عروستي عارية تماما دق الباب ..
وقالت ياسمين :

ـ ماذا حدث ؟ لماذا ضربوني ؟ كنت اركب الحصان . في مزرعتنا على مقربة من مخيم الفلسطينيين ، وعندما رأوني ، اخذوا يرشقونني بالحجارة ، حتى وقعت على الارض .

وقالت مريم :
ـ ولكن لماذا ، لماذا ضربوك ؟
فاجابت ياسمين بخفة :

ـ ظنوا اني اسرائيلية . فانا شقراء وهم يعتقدون ان كل الشقراوات اسرائيليات .

عندئذ انتهت المسرحية . منذ انتقل كل واحد الى حقيقته . مريم لا تصدق ان النازحين ضربوها لمجرد كونها شقراء ، وزوج

ياسمين يحاول ان يعرف سر اهتمام مريم بالفلسطينيين ، وسيدة المقعد الخامس تدفقت تسأل البطل بعد طول كبت :

ـ خلصنا من اثارتك هذه ، واخبرنا ماذا حدث ؟

واجابها الرجل المبهور بنفسه :

ـ دخلت شلة من . الاصدقاء العازبين وبيد كل منهم زجاجة شمبانيا . وهكذا قضينا السهرة حتى الصباح .

وظلت مريم المستمتعة الوحيدة . غير انه خطر ببالها آن تسأله:

شربتم الشمبانيا وزوجتك عارية تماما ؟!

وشد زوج ياسمين مريم الى ناحيته قائلا :

ـ تعالي الى مزرعتنا لاريك هناك كيف يباع السلاح في المخيم.

وتلعثمت ياسمين قائلة :

ـ انهم ليسوا كذلك ، انت لا تعرف ظروفهم . الفدائي نبيل .

واجابها زوجها :

ـ الفدائي لا يبيع السلاح :

والتقط رجل الاعمال الشفوف بالغزل اخر كلمة من حديث الاخرين ،ثم اخرج سيجارا فاخرا من جيب جاكتته ، واشعله وهو يقول :

ـ عمّ تتكلمون ؟ الفدائيون راحوا ، انتهوا .

واعتدل زوج ياسمين في جلسته مستريحا الى سنده الاجتماعي رغم كل شيء ، وقرينه الطبقي بالاضافة الى كل شيء .

وفجاة افلتت مريم من بين براثن جدران الصقيع ، وركضت في ليلة بيروت الباردة الى النهار .. الى شمس الغور الوضاحة تفتش عن ابي الليل . الم يخبرها مرة ان رفيقه الجريح قال له : « احمل سلاحي » وامضي . فالمسيرة لن تتوقف بسببي ؟ »

ودخل الدفء اعماق مريم مرة واحدة . الفدائي آت، هو شاب في الخامسة عشرة من عمره آختار اخر ايام السنة الماضية ، كي ينصب كمينا للعدو هو وولدان آخران في مدينة مقدسةمن مدن الارض المحتلة ، وكل ما يملكه من سلاح كان مسدسا واحدا .

وسخر منه العدو . وزارته امه في السجن ، وهناك حذرها من ان تسأله كيف اصبح فدائيا . وعادت الى البيت شامخة الرأس، فهو لا يعرف انه تعلم كيف كان يسرق الراديو في ساعة معينةمن كل مساء ليستمع الى صوت العاصفة .

الفدائي آت ، ولولاه ولولا وجود مريم معه ، لهرعت الى الحمام، وتقيأت كل ليالي بيروت الباردة في الساعة التاسعة . لكانت قالت لجارها وزوجته ، لبطل الرواية وعروسته العارية ، للجيران، للحكام والملوك والسلاطين . لصاحت بالاكل وبالمشروب وبالدخان وعري النساء وزركشة الفضة والذهب آن ايامهم انتهت ،وان اياما اخرى ، تفزل اساطير المستقبل آتية في الافق . الفدائي جاء، الفدائي موجود .. والمستقبل نار جياشة من العطاء .

بيروت

ليلى عسيران

الانسان الاشتراكي

تاليف

اسحق دويتشر

ترجمة جورج طرابيشي

« اذا كان يخامرنا شيء من الاعتزاز لاننا كنا اول من قدم اسحاق دويتشر الى القارىء العربي عندما ترجمنا ثلاثا من دراساته في « تجارب اشتراكية » الصادر عن « دار الآداب » فان قدرا اكبر من الاسى يساورنا اذ نقدم له في الدار نفسها آخر ما كتب :« الانسان الاشتراكي » .

« ان هذا الكتاب يضم ، فضلا عن الفصل الاول من سيرة لينين التي حال موت المؤلف دون اتمامها ، خمسة نصوص تكفي عناوينها وحدها للدلالة على مدى اهمية المشكلات التي تناولها بالتحليل : « الماركسية في عصرنا » و« الانسان الاشتراكي » و« جذور البيروقراطية » و « حول الاممية والنزعة الاممية » و« التيارات الايديولوجية في الاتحاد السوفياتي » .

« وفي هذه النصوص يبرز وجه دويتشر منظرا ماركسيا ثوريا من غير ثرثرة واوهام ، وواقعيا من غير مساومة واستسلام . ولعل اهم ما يميز تفكير دويتشر هو تفاؤله .. وقد عبر قبيل وفاته بايام عن ثقته بان القرن العشرين لن تطوي صفحته الا ويكون قد قام في العالم شيء اسمه « ولايات اوروبا الاشتراكية المتحدة » كما يكون الاتحاد السوفياتي قد انجز بناء الاشتراكية بعد ان يتحرر نهائيا من شوائب التركة الستالينية ...

« اشتراكية مبنية على الحرية : ذلك هو جوهر مذهب دويتشر واساس مفهومه عن « الانسان الاشتراكي » ومفتاح موقفه من التجربة السوفياتية في بناء الاشتراكية ... »

من مقدمة المترجم

صدر حديثا ـ ثمن النسخة ٤ ليرات لبنانية او ما يعادلها